إزدواجية التجاذب في شعر بدر شاكر السياب

أ.م.د.يونس عباس حسين
الجامعة المستنصرية-كلية التربية الأساسية

يقول الشاعر الألماني "غوته" في كلمة له: إن لجبل البرناس قمماً عديدة، وهو يعني أن الشعراء المجيدين قممٌ أخرى لجبل الشعر. ولعلَ بدر شاكر السياب واحدٌ من الشعراء الذين حققوا هذه المقولة، فهو شاعرٌ كبيرٌ في مقاييس زمانه، على درجة عالية من الثقافة المتنوعة التي استقاها من ينابيع متعددة، عربية وأجنبية، والسياب ابن مفهوم عن الشعر يميل لا إلى عكس أثر تجربته باستطراد وإسهاب ويستسلم للتداعيات بدل الاقتصاد والتركيز بعكس نازك الملائكة التي تؤدي تجربتها بأقل مايمكن من كلمات تفيض بالإيماءات والإيحاءات وتتفجر بالدلالات، وكأن نازكاً كانت تحفظ جيداً مقولة بودلير: إن العاطفة تسيء للفن اذا أفرط في الاستسلام لها. ويمكن اعتبار طريقته في نظم القصيدة الطويلة أول مَعلم في شعره، وثاني مَعلم في تجربته الشعرية ردُ العنت الشعري الى عفوية الأداء حتى ليبدو السياب وكأنه أرسل شعره مهملاً لا يعبر عنه إلا بمقدار مايعانيه ولا يعانيه إلاّ بمقدار مايعبر عنه، مخفياً ذلك الجهد السري المبذول بين أربعة جدران. أما المَعلم الثالث في تجربته فهو العودة إلى أصولية لاتتعنت إلا بمقدار ماتخاف على اللغة العربية أن تنحدر إلى أساليب العامة أو أساليب العامية الصحافية اليومية وهي ممتلئة عدواناً على اللغة ونحوها وحتى صرفها وصيغها، فهو أبقى على شعره تلك المتانة اللغوية وحسن السبك واستخدام طرق المجاز والتشبيه وأولى عناية خاصة بالعروض.

إن تجربة بدر كبيرة تقوم على ثنائيات متناقضة، ففي العالم طرفان: المطلق والواقع، الحياة والموت، النور والظلام، النعيم والجحيم، الخير والشر، وهاتان القوتان المتضادتان اللتان تجذبان الإنسان نحو الله والخير، والثانية نحو الشيطان والشر هو

مايعبر عنه بـ"إزدواجية التجاذب" وهي ظاهرة جلية في معظم منجزه الشعري، وللتوصل إلى فهم هذه الظاهرة المتسلطة على وطن الشاعر الداخلي ينبغي أن نسلط الأضواء على العوامل الأساسية التي أسهمت في تكوين هذه الظاهرة.

وتحقيقاً لهذا التوجه النقدي علينا أن نبحث في كل مايتعلق بـ:

١. طفولة الشاعر ونشأته.
٢. الظروف الاجتماعية والسياسية.
٣. مصادر ثقافته العربية والأجنبية.
٤. تأثير الأدب الأجنبي وتمثله بتاجه.
٥. علاقته بالمرأة والغربة والمرض.

ثم نسعى إلى ربط كل هذه العناصر بعضها ببعض بحيث يكون النظام الفكري الشعوري الذي يعيش الشاعر في فلكه ثم ينطلق من هذا النظام لتفسير تلك الظاهرة في شعره.

إن الكشف عن طفولة السياب ومؤثراتها في توجيه أدبه ليست في التحليل النقدي بالشيء القليل، فمن المعروف أن التأثر بالمرحلة المبكرة من الحياة أعمق منه في المراحل التالية، فلم يحظَ السياب بطفولة هانئة كالتي حظي بها غيره من الشعراء فنشأ طفلاً محروماً من حنان الأم ورعاية الأب مما أدى إلى أن ينمو نمواً غير متوازن أثر في نفسيته تأثيراً كبيراً.

وتأتي الأوضاع الاجتماعية لتعمق ذلك الشرخ الحاصل في نفسيته وتوسعه بقدر البعد بين بيئته الريفية الفلاحية وقيمها وتقاليدها وبين المدينة وصراعاتها الطبقية، وإثر تعدد الثقافات التي استقاها بدر في توجيه عالمه الخيالي واضح في أدبه، فقد جمع بين الثقافة التقليدية (الأصولية) والثقافة الجديدة فقرأ الكثير من كتب الأصول وتأثر بالأسلوب

العربي الفصيح والبليغ ومن الشعراء القدماء كان لأبي تمام موقع خاص في نفسه وكان يلازم حماسته ويحفظ منها الكثير، وكذلك كان معجباً بالمتنبي إعجاباً كبيراً وبأبي العلاء المعري والجاحظ الذين يسميهم بالعمالقة الثلاثة. وكان الشعرُ العربي الحديث من الروافد التي تصب في ثقافته العربية، فقد تأثر كثيراً بأبي شبكة وعلي محمود طه.

أمّا ثقافته الأجنبية فقد قرأ الأدبَ الروسي والأدبَ الانكليزي والفرنسي وتعلقَ بأساليب الفحول من الشعراء الأجانب أمثال: شكسبير وبايرون ووردزورث وشلي وكيتس وت.س. اليوت وأديث ستويل وقرأ ترجمة لشعراء فرنسا أمثال: لامارتين ودي موسيه وهيجو وفرلين وبودلير[١].

إن الدراسة الواعية لهذه الظاهرة من خلال منجزه الشعري تكشف عن الأثر العميق الذي طبع به (بودلير) السياب، فلم يعد إظهار إعجاب السيّاب بالشاعر الفرنسي الكبير مقصوراً على عبارات الإهداء التي تتقدم قصيدته (الشاعر الرجيم) وإنما أصبح الشاعر الفرنسي يلقي بصماته على شعره متجلية بظاهرة "إزدواجية التجاذب".

ولكن ثمة فرق أساسي بين بودلير والسياب في تناولهما لهذه الظاهرة، ينبغي لفت الانتباه إليه قبل تفصيل مظاهر الإزدواجية في شعر السياب.

فلئن كان صراع قوتي التجاذب الميتافيزيقي المتجلي في التجاذب بين الوجود والعدم والأخلاقي المتجلي في التجاذب بين الخير والشر ينعكس لدى بودلير في موقف ديالكتيكي من التاريخ والكون ويمثل موقفاً علمياً وفكرياً عميقاً فإنه عند السياب يقوم على الانفعالية وعدم انطلاقه من موقف عقائدي ثابت مهما كان، ولايعبر عن موقف ديالكتيكي أو أخلاقي، وسنعاين التأثير البودليري في شعر السياب حين نخضع هذه الإزدواجية للتحليل النقدي.

ولإزدواجية التجاذب مظاهر عدة في مزاج السياب وفي منجزه الشعري. يتحدث أنسي الحاج عن هذه الإزدواجية فيقول[٢]:

"جاهلي بدوي فولكلوري خرافي أنكلوسكسوني على واقعي هجاء ورثاء مداح بكاء يسيل به الشعر سيل قريحة فارطة".

وقد وصف السياب خير وصف إزدواجية التجاذب التي يتصف بها شعره في حديثه عن وظيفة الادب بقوله: "وقد كانت وظيفة الأدب، أو بالأحرى وظيفة الرائع منه تصوير هذا الصراع القائم بين الشر وبين الإنسان ومازالت وظيفته حتى يومنا هذا"[٣].

وهكذا يعبر السياب عن ظاهرة إزدواجية التجاذب من خلال مواقفه من أصعدة متعددة، على صعيد المرأة والحب والصعيد النفسي والاجتماعي والسياسي وصعيد الحياة والموت.

وسنعاين مظهراً واحداً من مظاهر هذه الازدواجية، وجدناه جلياً في موقف الشاعر من المرأة والحب بوصفه الفلك الذي تدور حوله بقية الموضوعات الشعرية، فهو يحبها ويمقتها في آن واحد.

كان بدر في مرحلة الصبا يكنُ للمرأة حباً وبغضاً عميقين في الوقت نفسه، يجد فيها، تارة، إشراقة وضاءة لحياته وكيانه.. كما في قصيدة "أغرودة"[٤]:

أضـــاء حيـــاتي ســـنا مقلتيـــك فأبصـــرت مـــا لـــم أكـــن مبصـــرا
وشـــاهدتُ قفـــراً بعيـــد الحـــدود تعـــانقُ فيـــه الســـماءُ الثـــرى
وقـــد خلـــتُ فـــي ظلمتـــي أن لـــي رفيقـــاً... وهـــا انـــني لا أرى
فـــرُدي علـــى القلـــب أوهامـــهُ وخليـــه فيمـــا ادعـــى وافتـــرى
"لبيبـــهُ" رُحمـــاك إن الوصـــال أحـــبُ إلـــى القلـــب لـــو خيـــرا

وهذا لايمنعه في القصيدة نفسها من ان يذم المرأة ذماً مقذعاً قد يشكل تمهيداً لما نلمسه من قسوة واحتقار في قصائده اللاحقة. يقول:

بعينيك غدرٌ بكل الرجال ولكن عيني لن تغدرا

وتبلغ نقمة السياب على المرأة ذروتها في "ثورة على حواء"[٥] حيث يرميها بالدعارة:

ولأنت- مهما كنت سافلة إن شاء ذلك أو أبى الخدمُ
خدموا جمالك وهو -لو علموا- دنسٌ بثوب الطهر ملتئمُ
إني أشك بكل غانية لا بل أكاد، أتهمُ
وأقول جهراً أنت عاهرةٌ وليغضبنك ذلك الكلمُ

وهذا لايمنعه في الديوان نفسه من أن يمجدها ويعتذر عما قاله معتسفاً، كما توضحه قصيدة "بين الرضا والغضب"[٦]:

حواء عفوك إن جرى القلمُ بغوى شعر ملؤهُ تُهمُ
قد كنت في ماقلت معتسفاً ولبئس قولا ذلك الكلمُ
عجباً أجرد منك عاهرةً يا عفة شهدت لها الأممُ

وهو في القصيدة نفسها يُخير المرأة بين إحدى القوتين المتسلطتين عليه، الروحانية والشهوانية:

حواء...

إنْ رمـــــت روحانيـــــة وجـــــدتْ عنـــدي ومـــلء رياضـــها نعـــمُ

أو رمـــــت شـــــهوانية وجـــــدتْ عنـــدي وفيهـــا النـــار والحمـــمُ

وهكذا كان موقف السياب من المرأة موقف سخط وازدراء في حين، واعجاب وتوسل في حين آخر.

ومن خلال تأرجح السياب بين ثنائية المرأة (الطهر، العهر) نلاحظ غلبة الجانب الأول وهذا يعني تسلط فكرة الطهر على الشاعر ولعل هذا يجد تفسيره في بحث السياب عن النموذج الأمومي فالحبيبة تعيده إلى حنان الام التي ماتت في غير وقتها لاسيما وان الاب قد انصرف عن ابنه بعد وفاة أمه.

يقول في قصيدة "خيالك"[٧]:

خيالـــك مـــن أهلـــي الاقـــربين أبـــــرُ، وإن كـــــان لايعقـــــل

أبـــي... منـــه قـــد جردتنـــي النســـاء وأمـــي... طواهـــا الـــردى المعجـــل

ومـــا لـــي مـــن الـــدهر إلا رضـــاك فرحمـــــاك فالـــــدهر لايعـــــدل

تبدو المرأة في شعره في زي الشيطان وطوراً في ثياب الملاك يحن إلى وصالها ويمقتها في آن واحد، يقرضها هنيهة ثم يهجوها، ففي قصيدة "إليك شكاتي" نلمس العفة والطهر والروحانية يقول:

فيـــا نفحـــة للحـــب مـــلء جـــوانحي ويـــا نبـــأة للـــوحي طافـــت بمســـمعي

إليـــك شـــكاتي فأمســـحي مـــن أضـــالعي ســـطور جـــوى فـــوق الفـــؤاد بـــأدمع

إلـــى أفـــق أحلامـــي ففـــي ســـرحاته لنـــا موعـــد يحلـــو فخفـــي لـــه معـــي

هنـــاك لروحينـــا علـــى الحـــب ملتقـــى يزوقـــه طهـــر الهـــوى المتضـــوع[٨]

ويصب غضبه ونقمته على المرأة، فلا يجد أفضل من قصة آدم وحواء دليلاً على ماتصنعه بالرجل وكيف تقوده إلى الهاوية:

أغوتـــــه (حـــــواء) فمـــــد يديـــــه نحـــــو الافعـــــوان

ثمـــــرٌ يحرمـــــه الإلـــــه عليهمـــــا ..... ويحلـــــلان

ذاقـــــا فكانـــــا ظـــــالمين فكيـــــف يجـــــزى الظالمـــــان؟

وبـــــدا المـــــوارى منهمـــــا فـــــإذا هنالـــــك ســـــوءتان

وعليهمـــــا طفقـــــا مـــــن الـــــورق المهـــــدل يخصـــــفان

يـــــا بـــــؤس مـــــن فضـــــح الإلـــــه ولـــــم يـــــزده ســـــوى الهـــــوان

لـــــم يعـــــرف الـــــدوح الخريـــــف ونـــــزع أوراق حســـــــان

حتـــــى نضـــــا ورقاتـــــه العاشـــــقان الاثمـــــان[٩]

ولكي أتوصل إلى معرفة القوة المتسلطة على ذات الشاعر التي تجذبه إلى أحد طرفي المعادلة التي تشكل تجربته الابداعية ويقوم عليها شعره في المرأة وأعني "الروح/الجسد" والتي تشكلها الثنائيات التضادية (الطهر/العهر) و(النور/الظلام) و(النعيم/الجحيم) قمت بإحصاء ألفاظ التضاد التي تشكلها تلك الثنائيات التي تتضمنها ملحمته الشعرية: "بين الروح والجسد" بوصفها أنموذجاً لازدواجية التجاذب.

وقد تناولت كل لفظين متناقضين على حدة وحددت نسبة ورود أحدهما على ورود الآخر وذلك لتحديد قوة الجذب التي يسلطها اللفظان المتناقضان على الشاعر، وأتاح لي ذلك استقراء النتائج الآتية: [جدول الثنائيات التضادية].

على مستوى ثنائية (الطهر/العهر) جاءت نسبة استعمال الشاعر لالفاظ الطهر ومرادفاته: النقاء- الصفاء- العفة- العذراء- الشرف- الفضيلة... الخ إلى ألفاظ العهر ومرادفاته: البغاء- الزنا- الدعارة- الشهوة- العار- الرذيلة- اللذة- الدنس- الفجور... الخ على الوجه الآتي:

الطهر

نسبة التجاذب ـ

العهر

وتكون قوة التضاد في هذه الثنائية: ٠,٤٣.

وهذا يعني تسلط فكرة العهر على الشاعر.

وفيما يختص بثنائية (النور/الظلام) فإن نسبة استعمال الشاعر لألفاظ النور ومرادفاته: الصبح- الضوء- الشعاع- الاشراق- السراج- الوميض... الخ إلى ألفاظ الظلام ومرادفاته: الليل- الظلام- السواد- العتم- الديجور- الظلال ... الخ.

النور

جاءت نسبة التجاذب ـ

الظلام

وتكون قوة الجذب ١,٣٢.

وهذا يعني ان ألفاظ النور تغلب على ألفاظ الظلام، والنور عند الشاعر (يحفر ثلاث قنوات رئيسة: فهو إما ان يكون ساطعاً ليعري الشاعر ويفضح اخفاقه، وإما أن ينحسر قليلاً فيكون بذلك تعرية لطيفة خفيفة للاخفاق العاطفي، وإما أن يكون صورة للحياة التي تنطفئ في جسد السياب المريض)[١٠].

وجاءت نسبة ورود ألفاظ النعيم ومرادفاته: الفردوس: الجنات– السماء– النعيم– الروض– الحقول ... الخ إلى الفاظ الجحيم ومرادفاته: جهنم– النار– السعير– الحمم– البركان– اللظى... الخ في ثنائية "النعيم/الجحيم" كما يلي:

النعيم

-

الجحيم

وهذا يدل على تسلط قوة الجحيم على ذات الشاعر ووجدانه حيث جاءت نسبتها (٠,٦٣).

جدول إحصائيات الثنائيات التضادية

القصيدة	ثنائية (الطهر/العهر)			ثنائية (النور/الظلام)			ثنائية (النعيم/الجحيم)		
	الفاظ الطهر	الفاظ العهر	نسبة الجذب	الفاظ النور	الفاظ الظلام	نسبة الجذب	الفاظ النعيم	الفاظ الجحيم	نسبة الجذب
بين الروح والجسد	٦١	١٤١	٠,٤٣	٤٩	٣٧	١,٣٢	٤٠	٦٣	٠,٦٣

هذا ببلاغة الارقام دليل ساطع على تأثير الشاعر الفرنسي بودلير في السياب وبلاغة الارقام التي لايمكن ان تنطق إلا بمضمونها ومنطقها يثبت ذلك التأثير البودليري.

ومن أوجه تأثير بودلير في السياب استخدامه لألفاظ نادرة الاستعمال وهي ألفاظ غالبها غير شعري.

ومن هذه الالفاظ النادرة استعماله للفعل (مص) ولاينصب الامتصاص عنده الا على الدم وهذا مايميز استعمال بودلير لهذا الفعل فهو لايرد في شعره إلا مقروناً بالدم.

يقول السياب في قصيدة "حفار القبور":

حتى الشفاه يُمص من دمها الثرى[١١]

.....

حتى تُمصا من دماي.... وتلفظاني في ارتخاء

وكذلك استخدام السياب لألفاظ الحشرات والديدان واللحوم واللحود والجيف تعيد إلى الذاكرة صور بودلير التي يكثر فيها ورود تلك الالفاظ. فلنتأمل مثل تلك الألفاظ في الأبيات الآتية:

فكأن ديدان القبور

فارت لتلتهم الفضاء، وتشرب الضوء الغريق[١٢]

.....

آهاً لأجساد الحسان! أياكل الليل الرهيبُ

والدودُ، منها، ماتمناه الهوى؟ واخيبتاه[١٣]

.....

مما تعصر أعين الموتى وتنضحه الجلود

تلك الجلود الشاحبات وذلك اللحم النثيرْ

.....

ياجثة على الثرى مستلقية

الدود فيها موجة من اللهيب والحريرْ[١٤]

وهكذا نلاحظ شبهاً كبيراً بين تجربة السياب والتجربة البودليرية فكلا الشاعرين غريب في عالم المرأة الذي اجتازه واحدة اثر أخرى من دون أن يصل في نهاية البحث إلى نتيجة. كما نلاحظ ذلك التأثير البودليري في السياب الشاعر الذي دخل ديوان (أزاهير الشر) وشرب من حروفه سلافة الجحيم وغرق فيه على حد قوله:

دخلتُ من كتابك الاثيم

حديقة الدم التي تؤج بالزهر

شربت من حروفه سلافة الجحيم

غرقت فيه صكني العباب

يقذفني من شاطئ لشاطئ قديم[١٥]

مصادر البحث

١. ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

٢. ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت، ١٩٧٤.

٣. بدر شاكر السياب- حياته وشعره، عيسى بلاطة، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧١.

٤. بدر شاكر السياب- دراسة في حياته وشعره، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢.

٥. بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق، محمود العبطة، بغداد، ١٩٧٥.

٦. الموضوعية البنيوية- دراسة في شعر السياب، عبد الكريم حسن، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٣.

٧. النقد التحليلي، محمد محمد عناني.

٨. مجلة الآداب، اكتوبر ١٩٥٦.

٩. ملحق النهار، العدد ٨٩٥٠، سنة ١٩٦٥.

الهوامش

[١] جماليات المكان، جاستون باشلار.

[٢] ملحق النهار، العدد ٨٩٥٠، الأحد، ٧ شباط.

[٣] مجلة الآداب- أكتوبر ١٩٥٦، ص٢٢.

[٤] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص١٦٣.

[٥] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص٣٢١.

[٦] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص٣٢٨.

[٧] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص١٥١.

[٨] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص١١٥.

[٩] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الثاني، ص٢٠٥-٢٠٦.

[١٠] الموضوعية البنيوية-دراسة في شعر السياب، عبد الكريم حسن، ص١٦١.

[١١] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص٥٤٧.

[١٢] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص٥٤٤.

[١٣] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص٥٤٧.

[١٤] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص٤٤٩ من قصيدة (المبغى).

[١٥] ديوان بدر شاكر السياب، المجلد الأول، ص١٩٤، من قصيدة (الشاعر الرجيم).